مسابقة الأدب العربي

٢ ـ ديوان أيدمر المحيوى

للدكتور زكى مبارك

حياة الشاعر

فى الأخبار التى جمعها الأستاذ أحمد نسيم ـ وهى على قلتها كل ما يمكن الوصول إليه فى هذا الوقت ـ سكوت عن العمل الذى كان يتعيش منه هذا الشاعر المجيد ، فلم يكن كاتب إنشاء كما كان البهاء ، ولا كان يتولى إدارة أحد الدواوين ، كما كان يتفق لبعض الشعراء

والظاهر أنه كان يتكسب بشعره ، كما تدل الأبيات الآتية ، وهى من قصيدة يمدح بها الملك الكامل ، ويذكر ظفره بالفرنج يوم قصدوا دمياط :

أشكو الخمول إلى علاك فإننى ... فيما أقول لمحسن ومجود

أبدى البديع ولا يزايل ظله ... ظلى ومنه ما يسوء ويكمد

إن القريض وإن تكاثر ساكنو ... أفيائه للعبد فيه الأوحد

لكنه أدناهم قدراً إذا ... وردوا وأغلاهم إذا ما أوردوا

ومعنى هذا أن الشعر نفع من ليسوا فى مثل منزلته من الفصاحة والبلاغة ، وأنه برغم براعته ظل من الخاملين

وقد ذكر فى الفصل الأول من كتابه أنه عبر فى سياحته واحداً وثلاثين ألف ميل ولم يقض فى الهواء أكثر من مائة وستين ساعة ، وهذا عنده ـ وعندنا ـ دليل صادق على أننا نعيش اليوم فى « دنيا واحدة » كما اختار أن يسمى كتابه ، ولكن الدنيا الواحدة ، بل الدار الواحدة ، بل النفس الواحدة ، تحتاج إلى أكثر من مائة وستين ساعة ، بل مائة وستين يوماً لفهمها على جليتها ، وتصويرها فى ظواهر أحوالها وبواطن حقيقتها . ولعل الرجل الذى يستطيع أن ينظر إلى الدنيا نظرة واحدة مستطيع أن يستدرك من أخطائه ما تتفرق به الأقوال وتتشعب حوله الآراء .

عباس محمود العقاد

وهنالك أبيات حزينة نص فيها على رضاه بالقسوم له من دنياه ، مع أنها فى قصيدة مديح ، وهى قوله بعد التشبيب :

لم تعنى الأيام مطلب همتى ... من رفدها فأخذت ما تعطينى

ورأيتنى سخطى يدوم إذا أنا ... لم أرض إلا بالذى ترضينى

حال لعمرك دون قدرى إنما ... أرضى بها نظراً إلى من دونى

وهى أبيات فى غاية من النفاسة ، ومنها نعرف أنه كان مقلقل الحياة بين العطاء والحرمان

الغزل والتشبيب

المختارات التى بقيت من ديوان أيدمر تدل على أمرين : الأول أنه لم يكن يبدأ جميع قصائده بالنسيب ، كما كان يصنع أكثر الشعراء ، وهو مذهب حاربه المتنبى حين قال :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم ... أكل فتى قد قال شعراً متيم

والأمر الثانى أن النسيب عنده كان فى الأغلب من فواتح المدائح ، كالذى رأينا فى قصيدته القافية ، وهو يذكر يوم التخليق بالقياس

ولو ظفرنا بديوان أيدمر كاملاً لعرفنا مذهبه فى التشبيب ، فمن المحتمل أن يكون خصه بقصائد طوال أو قصار ، كما فعل البهاء

أقول هذا لأنى أستبعد أن يكون الغزل نافلة عند من يقول:

ومضنى الحصر لا يدرى يقيناً ... أورد وجنتاه أم حميا

أتانى زائراً من غير وعد ... وقد مالت لمغربها الثريا

فوافى دين شوق حين وافى ... وأحيا ميت أنسى حين حيا

وبت أرى يقين الوصل شكا ... وقد ملأ الهوى منه يديا

أفكر فى الجفا أنى تقضى ... وأعجب للرضا أنى تهيا

والمعانى هنا مألوفة أو مطروقة ، كما قلت فى مثلها من قبل ، ولكنها فى حيوية قوية تشهد لصاحبها بالابتكار والابتداع

وأين من يلاحظ كلمة « يقيناً » فى البيت الأول ، وهى من القوة بمكان ، مع أنها لو وقعت فى غير هذا الموقع لكانت من المبتذلات ، وسر قوتها يرجع إلى حيرة المحبوب فى إدراك سحر وجنتيه الورديتين أو الحمريتين ، وهل يعرف الورد أنه ورد ؟ وهل تعرف الخمر أنها خمر ؟

والبيت الثالث أعجب وأغرب ؛ فالعاشق يرتاب فى اليقين ، لأنه فوق ما تسمح به الأوهام والظنون ، وقد أوضح ارتيابه بهذا البيت :

أفكر فى الجفا أنّى تقضّى وأعجب للرضا أنّى تهيّا

ولهذا الشاعر لوعة أفصح عنها حين قال :

ذُكِر الحِمَى فأطال رجع أنين
وغـدا يواصل زفرةً بحنين

واعتاده ولَـهٌ يقسّم لبّهُ ما بين حالة حيرةٍ وجنون

وجَرَتْ محاجرُه دماً فكأنما شرقت بذوب فؤاده المحزون

ولما يكفكف دمعه بشماله أسفاً وعـلك قلبه بيمين

يامنزلاً قضت الصبابة لى به ذمم الصبا ومآرب العشرين

أيام ألبس للغواية ثوبهـا وأجر ذيل خلاعة ومجون

وأجيب داعية التصابى ملقياً رَسَنى إليه يضل أو يهدينى

ليت الذين ولعت من كَلَفى بهم
حفَلوا بحـرّ تلهفى وحنينى

قد كان يضحكنى الزمان بقربهم فاليوم عاد ببعدهم يبكينى

وأقول من جديد إن المعانى ليست جديدة ، فقد طاف بها كثير من الشعراء ، ولكنها فى نظرى جديدة ومبتكرة ، لأن الشاعر يحسها بأقوى ما يكون الإحساس ، أليس هو الذى يقول فى مطلع إحدى المدائح :

طاف بنا والليلُ فى ثوب خَلَق
يلمع من خلاله نور الفَلَق

والنجم يخبو تارة ويأتلق مثل عيونٍ كابدت طول الأرق

خيالُ من أسكنَ جنبىّ القلق
جبينُه الشمس وخـدُّه الشَفَق

يبدو فما أرمقه فيمن رمق يأمرنى الوجد وينهانى الفَرَق

وهنا أقول إن هذا خيال لم أجده عند غيره من الشعراء ، وهو بهذا الخيال وثب وثبة تطرب الإنس والجان

وعلى المتسابقين أن يتأملوا فى معانى هذه الأبيات ، فقد يكون فيهم من يعرف من أسرارها مالا أعرف ، والشعر كالحسن تتفاوت فى فهمه الأذواق

شاعر مبدع

هو أيدمر الذى أراد أن يأتى فى المديح بالمطرب والمرقص ، فهو الذى يقول فى ممدوحه بعد ذلك النسيب :

ألذ من وصف الغزال المنتطق ومن مناجاة الخيال إن طرق

مدحُ فتًى ذكراه مِسكٌ ينتشق
لكنها فى حلق شانيه شَرَق

صدرٌ بهىّ الخَلق مرضىّ الخُلق
خوّله الله تعـالى ورزق

من المعالى كل ما جلّ ودق سابقَ أرباب المساعى وسبق

مشياً وهم بين ذميلٍ وعَنَق لو قذف النجم بعزم لاخترق

أو ضرب البحر بكفّ لفَرَق أو رجم الطود بحلم لصعق

وهذا شعر، بل سحر، وهو فى ديباجة أيدمريه ، لا بحترية ، لأن الشاعر هنا مفترع لأبكار المعانى وهى مدثرة بأفواف الخيال

الموشحات

نترك للمتسابقين مراجعة ما ألمعنا إليه بإيجاز ، لأن الغرض هو التوجيه إلى ما سيرد فى أسئلة الامتحان ، وهى لن تخرج عن العناصر الأساسية ، العناصر التى نشير إليها فى هذه الأحاديث

ونواجه مسألة جديدة هى اهتمامه بالموشحات ، كالذى صنع فى معارضة الموشح الذى مطلعه :

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

ولم يذكر جامع المختارات صاحب هذا الموشح ، ولكن الأستاذ أحمد نسيم نص فى الهامش على أنه من نظم أمير المؤمنين ابن المعتز العباسى

وما قاله الأستاذ أحمد نسيم هو ما كان يقوله جميع مؤرخى الأدب فى العصر الحديث ، وهو أيضاً ما قلته فى الطبعة الأولى من كتاب مدامع العشاق ، ولكنى بعد ذلك ارتبت فى نسبته إلى ابن المعتز فقلت فى الطبعة الثانية إنه لأحد الشعراء

ثم اهتديت إلى صاحبه فيما بعد فكتبت عنه كلمة فى جريدة البلاغ سنة ١٩٣٤ ، وهو محمد بن زهر الأندلسى ، ومثله موشح ابن بقىّ القرطبى وأوله :

غلب الشوق بقلبى فاشتكى ألم الوجد فلبّت أدمعى
أيها الناس فؤادى شغِف
وهو من بَغْى الهوى لا ينصف
كم أداريه ودمعى يكف
أيها الشادن من علمكا بسهام اللحظ قتل السَّبُع

ولا أعرف فى هذه اللحظة أى الشاعرين أسبق : ابن زهر أو ابن بقىّ ، لأنى أكتب هذا المقال فى ليلة مطيرة وفى مكان بعيد من المراجع الأدبية ، فليسأل المتسابقون أساتذتهم عن المبتكر والمعارض فى هذين الموشحين (١)

---

(١) يجب أن نسجل أن سعادة الأستاذ طه الراوى نشر فى مجلة الرسالة كلة عن نسبة الموشح إلى ابن زهر فى أعداد هذه السنة ١٩٤٣

والمهم هو النص على أن أيدمر فاز وهو يعارض ابن زهر، فقد استطاع أن يقول:

عَهِدَ البينُ إلى عيني البكا   ثم أوصاها بأن لا تهجعي
وسقى قلبيَ من خمرته
فهو لا يعقل من سكرته
فتى يُنقذُ من غمرته
في سبيل الحب قلب هلكا   شيّع الركبَ ولما يرجعِ

***

هزّ عِطف الغصن من قامته
مُطلعاً للشمس من طلعته
ثم نادى البدر في ليلته
أيها البدرُ تغيّبْ ويحكا   ما احتياج الناس للبدر معي

ثم مضى الشاعر فقال في ممدوحه ما شاء، ولكن الفن غلب عليه، فختم الموشحة بهذه الأقباس:

فاقتدحْ بالمزج نار القَدَحِ
نصطلي إنْ نحن لم نصطبح
وأغنّيك ولم تقترحِ
أيها الساقي إليك المشتكى   قد دعوناك وإن لم تسمعِ

أقانيم طريفة

قد عارض أيدمر بعد ذلك موشحة ثانية، ولا يتسع المجال للكلام عن الموشحات الأندلسية وتأثيرها في الآداب المصرية، ومن السهل أن يرجع المتسابقون إلى كتاب «بلاغة العرب في الأندلس» لأستاذنا الدكتور أحمد بك ضيف، فقد وفى هذا الموضوع حقه من البيان

والفَنّ الذي أقصد إليه هو موشحه الذي وصف به الخمر والرياض:

دع الصبا يعزّ في التصابي   قبل تجلي سكرة الشباب
وانتهز اللذات فالعيش فُرَصْ   رُبَّ سرورٍ كامنٌ فيه نَغَصْ
قم يا غلامُ هاتها وهاكا   واعص هوى العاذل في هواكا
أما ترى ظل السرور سابغا   ومشرب العيش هنيئاً سائغاً
في روضة قيد النظر   تشكر آلاء المطر
ترنو بأحداق الزهر   تحسبها بعد السَّحَر
قد انتثرْ   فيها دُرَرْ
أو انتشرْ   فيها حِبَرْ

***

تجلت الشمسُ عليها سافره   فقابلتْها بنجوم زاهره
ترمقُها حين دنا طلوعُها   بمُقَلٍ ترقرقت دموعها
تبكي وفي الأوجه بشر الضحك   فأعجب لها تضحك وهي تبكي
تمايلت تمايل السقيم   لما أحست بسُرى النسيم
فأشفقتْ على حَذَرْ   وفرقتْ من الخفر
من قبل أن يُقضى وطرْ   تود لو كان استمرْ
ذاك العَطِرْ   لما خطرْ
على الزَّهَرْ   ساء وسرْ

***

بات الندى يُشربها نميما   كما يغذّي الولدُ فطيما
فأصبحتْ ودرعها بليلُ   تكاد من قطاره تسيل
وأهدت الصَّبا لها كافورا   فملأت أردانها عبيرا
كأنما نُوّارها المستحسنُ   ألسنةٌ تنطق فهي أعينُ
تفصح في بث الخبر   عن الحديث بالنظر
بمقلة فيها صور   حسناء من غير حور
فمن نظرْ   فقد خَبَرْ
ما قد ظهرْ   وما استترْ

قد تقولون إن الغزل والوصف هما اللذان منحا هذه الموشحة هذا اللطف، ولكن المدح فيها لا يقل طرافة عن هذا الغزل

وقد أثنى الشاعر على نفسه في ختام هذه الموشحة، وهو فرح جذلان، لأنه يؤمن بأنه من أكابر أهل البيان

الشعر التاريخي

وأريد به الشعر الذي ينظم حوادث التاريخ، وقد نظم أيدمر قصيدة طويلة سماها «الوسيلة الشفّعة، في مناقب الخلفاء الأربعة»، وقد يرد عنها سؤال، لأنها تصور فهم هذا الشاعر للعهود الأولى من التاريخ الإسلامي، فمن واجب المتسابقين أن يلتفتوا إليها كل الالتفات أو بعض الالتفات، وموضوع هذه القصيدة مفصّل في الكتب المؤلفة عن عصر النبوة وعصر الخلفاء.

زكي مبارك

obeikandl.com